ثقافة السلام

ثقافة للتحرُّر الوطنيّ والمقاومة، من أجل السلام

فريدة النقاش

الواقع والمثال

كنتُ أفضّل أن تختار مجلة الآداب «ثقافة التحرُّر الوطنيّ والمقاومة» محوراً لعددها هذا، بدلاً من الانجذاب إلى الشعار الرائج الآن في الأوساط الثقافيّة العالميّة، استجابةً لما طرحتْه منظمةُ اليونسكو حول «ثقافة السلام». ففي ظنّي أنّ ثقافة التحرُّر الوطنيّ والمقاومة هي أفضلُ تعبيرٍ للمقهورين عن أنفسهم، وهي إبداعُهم الوطنيّ في مواجهة الهيمنة، وهي السلام الذي يبتغون.

وفي ظنّي أنّ طرح اليونسكو كان وما يزال مغلوطاً لأنّه انطَلَقَ من نقطةٍ تقول «إنّ الحرب تبدأ في العقل أو الذهن» على ما أَذْكر، وكأنّ العالم يتطوّر وفقاً لقوانين مُطْلقةٍ للفكر. وهذا منطلقٌ فلسفيٌّ مثاليٌّ يرى أنّ الوعي الإنسانيّ هو شيء مستقلّ تماماً عن العالم الموضوعيّ، وأنّه (أي الوعي) هو الذي يَخْلُق هذا العالمَ. وواقع الأمر أنّ الوعي يَعْكس العالم فقط. فالوعي يتشكّل، ثم يبرز وينمو في خضمّ الصراع والممارسة، كعنصرِ تفاعلٍ بين الموضوع والإنسان ذاته. أيْ أنّ هناك واقعاً موضوعياً تنشأ منه صراعاتٌ حول المصالح، وبين الطبقات، وبين الدول، يصل إلى ذروةٍ يكون فيها ثمّة ظالمٌ ومظلومٌ وغالبٌ ومغلوبٌ بصورة واضحة، وتتغيَّر هذه الأوضاعُ بتغيُّر موازين القوّة التي تَعْكس أوضاعاً وقيماً وأفكاراً تَفْعل فِعْلَها في الواقع لأنها تعبير عنه. والحديث عن تماثل بين المصالح، أمصالحَ استعماريّة كانت أم مصالح شعوب، وعن تماثلٍ بين الجلاد والضحية ومنطلقاتِ كلٍّ منهما، هو أيضاً انطلاقٌ من منهجٍ مثاليٍّ يقود بدوره إلى ذلك التعريف المغلوط للحرب باعتبارها مفهوماً ينشأ أولاً في الذهن وكأنها اختيار يُمْكن قبولُه أو العدولُ عنه.

واقع الحال أنّ الحرب تنشأ أولاً في الواقع، واقعِ التوسُّع الاستعماريّ الاستيطانيّ والاضطهاد القوميّ المؤسَّس على القوّة، أو واقع الاستغلال الطبقيّ الذي طالما أَشعَل حروباً. وفي الحالَيْن تنهض القوى التي يقع عليها العدوانُ للدفاعِ عن نفسها، ولا يكون هذا النهوضُ اختياراً للحرب بل غالباً ما يكون رداً لا مفرَّ منه على العدوان.

وتنشأ حركاتُ التحرُّر الوطنيّ والحروبُ الطبقيّة، وتندلع الثوراتُ، تَصْهر المقهورين وتستهدف تحريرَهم وتخليصَ كلِّ الواقعين تحت نير الاستغلال من أيّ نوع، لتعرف البشريّةُ السلامَ الحقيقيَّ القائم على العدل والمساواة والكرامة الإنسانيّة ولتَخْرج من حالة الضرورة إلى مملكة الحريّة الحقّة.

وعلى امتداد التاريخ لم تنهض حركاتُ التحرُّر الوطنيّ أو النضال الطبقيّ على الكفاح المسلَّح وحده ـ وهو الكفاح الذي يستهدفُ شعارُ «ثقافة السلام» استبعادَه تماماً كأداة تحريرٍ أَثْبت التاريخُ فعاليّتها. بل إنّها غالباً ما استَخْدمتْ كلّ أشكال الكفاح السلميّ أيضاً: من التظاهر، إلى

الاعتصام، والعصيان المدنيّ، والاحتجاج السلميّ، شأنَ «الساتياجراها» التي أطلقها غاندي ضد الاحتلالِ البريطانيّ للهند، أو شأنَ الانتفاضة التي استخدم فيها أطفالُ الشعب الفلسطينيّ الحجارةَ للردّ على رصاص الاحتلال الصهيونيّ.

الإنتاج الثقافيّ العربيّ والسلام

وقد عبَّرت ثقافةُ التحرُّر الوطنيّ والمقاومة، في كلّ تجليّاتها الإبداعيّة، عن توقها إلى الانسجام، الذي هو السلامُ في أصفى معانيه. والقراءة الفاحصة للإنتاج الثقافيّ العربيّ في العصر الحديث، ولأحدِ أقوى التوجُّهات العقلانيّة النقديّة في هذه الثقافة بعد سقوط البلدان العربيّة في يد المحتلِّين ثم نشوء الدولة العبريّة قبل اثنَيْن وخمسين عاماً، سوف تبيِّن لنا أنّ ذلك الإنتاج ـ على النقيض من أشكال التعبير الثقافيّ التي اتَّسمت بالتعالي القوميّ على أسسٍ عرقيّة أو دينيّةٍ ـ قد استلهم كلَّ القيم الإنسانيّة العليا؛ وكانت هذه غالباً قيمَ سلامٍ واعترافٍ بالآخر.

وإنّني، مِثْلي مثلُ المفكّر التونسيّ محمد الطالبي، لن أستخدم تعبيرَ «تسامح»، لأنّه تعبيرٌ ينمّ عن الاستعلاء والشعور بالتفوُّق والتنازل للآخرين. ومِثْله أيضاً أستخدم تعبير «النِّدّيّة»؛ فالثقافة العربيّة المعاصرة في مجراها الرئيسيّ تستطيع أن تقف بندّيّةٍ إلى جانب الثقافات الأخرى.

ولعلّ كتاب طه حسين **مستقبل الثقافة في مصر** الذي صَدَرَ في الثلث الأول من هذا القرن أن يكون تعبيراً بليغاً عن هذه المعاني جميعاً. فقد استطاع هذا المفكر العقلانيّ أن يمدّ بصره إلى ما بعد الاستعمار، ومن دون أن يساوِم فكريّاً على ضرورة جلاء الاحتلال عن بلده. واستطاع أيضاً أن يَسْتشرف آفاقَ ما أسماه بالنديّة الثقافيّة: فهو قد عرف جيداً تلك القيمَ العليا العقلانيّةَ والنقديّةَ التي حملتْها الثقافةُ العربيّة الإسلاميّة في الأندلس عن طريق ابن رشدٍ إلى أوروبا العصور الوسطى لتُسهم في نهضتها، ورأى في الغرب غربيْن أحدهما استعماريٌّ والآخر عقلانيّ ديموقراطيّ؛ وهو مفهوم ما تزال بعضُ القوى الداعية إلى نقاء الهوية في أوطاننا تشكّك فيه بل وتنفيه متحدِّثةً عن «غزوٍ ثقافيٍّ».

وكان هذا الغرب الآخر العقلانيُّ الديموقراطيُّ المتقدِّم علميّاً هو ما دعا طه حسين إلى أن نكون أنداداً له بخيره وشره. وهو لم يشعر أبداً بالدونيّة إزاء أيٍّ من الغربَيْن: فالغرب الاستعماريّ نقاومه بكل السبل، والغرب العقلانيّ الديموقراطيّ نتعامل معه بكلِ حريّةٍ وتفتُّح.

وهكذا كان الطاهر الحداد، المفكّر والمناضل النقابيّ التونسيّ وابنُ جامعة الزيتونة الدينيّة، يدعونا في كتابه **امرأتُنا في الشريعة والمجتمع** إلى مقاومة الاستعمار والتعلُّم من الغرب دون عُقَدٍ، منطلقين مما جاء القرآنُ من أجله لا ممّا جاء به. فما جاء القرآنُ من أجله هو نشرُ القيم العليا للعدل والمساواة والرحمة، وأما ما جاء به فهو أحكامٌ تتغيَّر بتغيُّر الزمان. وتلاميذ طه حسين والطاهر الحداد، على ما بينهما من تفاوت، من المفكّرين والكتّاب والمناضلين، أكثرُ من أن يُحْصَوا على امتداد الوطن العربيّ.

بل إنّ الإنتاج الإبداعيّ العربيّ في ميادين القصة والرواية والشعر والسينما والمسرح، وباستثناءات غير ذاتِ أهميّةٍ، قد عَبَرَ ـ دون أن يتجنَّب الملتَبِسَ ـ عن هذه النظرة الإنسانيّة المركّبة الشاملة في التعامل مع الآخر حين يكون معتدياً وغاصباً، وحين يكون منتِجاً لحضارةٍ متقدِّمةٍ أو ثقافةٍ

تقدُّميّةٍ ذاتِ أشواقٍ وقيمٍ عليا تشمل الإنسانيّة جمعاءَ وتتطلّعُ إلى سعادتها.

ولا ننس في هذا الصدد أنّ عصر التنوير بدأ أوروبيّاً. وحين اصطدمتْ قيمُ التنوير العليا التي تمجِّد العقلَ والحريّةَ بالوجه القبيح والاستعماريّ للرأسماليّة الأوروبيّة، كان أحفادُ المنوِّرين العظام يؤسِّسون للفلسفات النقديّة الكبرى التي كَشفتْ عن الاصطدام المحتوم بين الحريّة الإنسانيّة وحريةِ التملُّك الأنانيّة التي لا حدّ لها والتي بلغتْ ذروةً لها بنشوء الاستعمار والإمبريالية. وانخرطتْ أحزابٌ، وانخرط فلاسفةٌ ومفكّرون ومبدعون في بلدان المراكز الاستعماريّة الكبرى، في نضال البلدان المستعمَرَةِ. ومساندةُ جان بول سارتر، وقطاعٍ هامٍ من المثقفين الفرنسيِّين، لحرب التحرير الجزائريّةِ ضدّ الاستعمار الفرنسيّ، أشهرُ من أن نذكّر بها. كما أنّ مساندة المفكر الأميركيّ نعوم تشومسكي لبلدان الجنوب ضدّ الهمجية الأميركيّة هي شهادةٌ جديدةٌ. وما المظاهرات التي قامت بها النقاباتُ والأحزابُ والمنظماتُ النسائيّةُ التقدُّميّة ومنظماتُ الخضْر وقوى المجتمع المدنيّ في سياتل بأميركا ضدّ سياسات إفقار العالم الثالث التي تتبعها «منظمةُ التجارة العالميّة» إلاّ شهادةٌ أخرى.

ونعود إلى إسهام المثقفين العرب في بلورة قيم التعايش والتضامن والحرية الإنسانيّة والسلام، وهو الإسهامُ الذي كان واعياً في غالب الأحيان بالالتباس والتعقيد في قضية التحرُّر الوطنيّ ومقاومة الاستعمار والاستيطان والعنصريّة، وما يحيط بها من أسئلة شائكة حول الآخر، من قبيل: هل الآخر كتلةٌ أحاديّةٌ متراصةٌ تُكْمِل بعضها بعضاً، أم أنّه ـ وإنْ كان الأقوى ـ متعدِّدٌ ومركّبٌ شأنه شأن الأنا؟

في رواية **أحمد وداود** قدّم فتحي غانم قراءةً تاريخيّةً سيكولوجيّةً للتحوُّلات التي عرفتْها التركيبةُ النفسيّةُ لفتاة يهوديّة عاشت في فلسطين قبل إنشاء الدولة الصهيونيّة وأحبَّتْ شاباً فلسطينياً، ثم أصبحتْ مقاتلةً وعاملةً في أحد الكيبوتزات التي أنشأتْها الصهيونيّةُ وقدّمتها إسرائيلُ ـ زوراً ـ للعالم باعتبارها مؤسساتٍ اشتراكيّةً، لا مستوطناتٍ مسلّحةً أُنشئتْ على أراضي الفلسطينيِّين الذين طُردوا، وتدرَّب فيها فتيانُ اليهود وفتياتُهم على السلاح، وامتلأتْ نفوسُهم بالتعالي على العرب غير المتحضِّرين، فأصبحوا ـ بعدما شُحنتْ عقولهم بكل هذا العنف ـ كائناتٍ مشوَّهةً إنسانيّاً عاجزةً عن الحب أو التواصل مع الآخرين كما صوَّرها فتحي غانم ببراعة في روايته.

العقل أو الوعي، إذن، ليس شيئاً معطى أو ثابتاً ومصمتاً تنشأ فيه الحربُ اختياريّاً، وتعشِّش وتبقى هناك إلى الأبد، على نحو ما توحي اليونسكو. بل العقلُ الانسانيُّ، كما بيّنت الرواية المذكورة، إنّما هو في حال تحوُّلٍ وتشكُّلٍ دائمين. وقد عاشت الفتاة اليهوديّةُ في سلام وصحة نفسيّة قبل أن تأتي الميليشياتُ الصهيونيّة لتؤسس مشروعَها الماديّ لطرد سكّان فلسطين وإنشاء وطنٍ قوميٍّ لليهود. لقد كان عقلُ الفتاة قبل دخول المشروع الصهيونيّ طورَ التنفيذ خالياً من كل أوهام التفوُّق العنصريّ والعداء البغيض للعرب (أو «الأغيار» كما تسمّيهم الفلسفةُ العنصريّةُ الصهيونيّةُ)، ولم ير هذا العقلُ الخالي من الأوهام الشوفينيّة غضاضةً في حب شابٍّ فلسطينيٍّ من ديانة أخرى لأنّه كان عقلاً خَبِرَ التعايشَ والسعادةَ المشتركةَ والطفولةَ الحرة من التعصُّب والبغضاءِ على أرض فلسطين.

وفي رواية **الحب في المنفى** لبهاء طاهر كانت هناك شخصيّة يهوديّة لرجلٍ مات أبواه في معسكرات النازيِّين، واقتنع بأنّ ما تمارسه إسرائيل ضدّ فلسطين هو نازيّة جديدة. فلم يكتفِ بالسير في مظاهرةٍ نظّمها العربُ المقيمون في عاصمةٍ أوروبيّةٍ لإدانة مذابح صبرا وشاتيلا التي وقعتْ بعد ثلاثة شهور من غزو إسرائيل لبيروت سنة ١٩٨٢ بالتواطؤ مع الفاشية اللبنانيّة، بل وقف خطيباً في المظاهرة ليتّهم إسرائيل بالنازيّة. وعلى الجانب الآخر برزتْ شخصيّةٌ عربيّةٌ لرجلٍ ملأت الجماعاتُ الدينيّةُ الرجعيّةُ عقلَه بالأوهام والخرافات والنزعة القدريّة والتفوُّق العنصريّ والدينيّ، فوقف ليخرب المظاهرة. وأمسكت الروايةُ أيضاً بالعلاقات الخفيّة التي تربط بين الرأسماليّة اليهوديّة وبعضِ أصحاب المليارات العرب من شيوخ النفط.

وفي فيلم **عمر المختار** الذي قدّم قصةَ حياة الزعيم الوطنيّ الليبيّ الذي قاتل المحتلِّين في بلاده وما إنْ سقط في أيديهم حتى شنقوه، كان المختار الذي انطلق من ثقافة قومه وتراثهم ـ بما فيه من شوقٍ إلى السلام والرحمة والتآخي الحرّ ـ يقدِّر بعمقٍ ذلك الجانبَ الإنسانيّ في الغاصبين أنفسهم. وهذا التقدير هو الذي أَجْبرهم على إجلاله كزعيمٍ وطنيٍّ ومقاتلٍ من أجل قضية.

وفي مسلسلٍ تلفزيونيٍّ عرضتْه بعضُ الشاشات العربيّة في رمضان ١٩٩٨ وعنوانُه: **امرأة من زمن الحب** للمؤلِّف المصريّ أسامة أنور عكاشة، تزوّج أحدُ الأبطال المصريِّين بصحفيّةٍ يهوديّةٍ فرنسيّةٍ معاديةٍ للصهيونيّة، وكافحتْ مع المقاومين العرب في الجنوب اللبنانيّ بعرض قضيتهم عن طريق الصحافة على الرأي العام الأوروبيّ، فخطفتْها «الموساد» وقتلتْها، وخَطفتِ ابنَها وسلّمتْه إلى أحد الكيبوتزات لكي يتلقى تربيةً صهيونيّة. وكان هذا المسلسل الذي شدّ ملايين المتفرجين يَحْمل رسالةً واضحة تقول إنّ اليهوديّة كديانة شيء، والصهيونيّة كفلسفة عنصريّة وكدولة استيطانيّة تَستْخدم هذه الديانة شيءٌ آخر ـ وهو ما كان قد تعمّق روجيه جارودي في كشفه في كتابه **الأساطير المؤسِّسة لدولة إسرائيل**.

وفي المسلسل نفسه رَفضتِ البطلةُ الدخولَ في مشروعٍ تجاريٍّ باسم شقيقها الذي يعمل في الأمم المتحدة، وأسستْ موقفَها القاطعَ على رفضها التعاملَ مع شركاء إسرائيليِّين. وحين قال لها الشقيق إنّ الحكومة تتعامل مع إسرائيل منذ عشرين عاماً، وإنّ ما تتمسّك به هي ليس إلا مجموعةً من الأفكار القديمة، ردّتْ بإيجازٍ عبقريٍّ:

ـ إنّ الحكومة شيء، والناس شيء آخر.

ويمكننا أن نترجم هذا القول إلى لغة أخرى تقول إنّ السياسةَ شيءٌ والثقافةَ شيءٌ آخر، بالرغم من التفاعل القويّ بينهما... ودون أن ننسى أنّ السياسة عادةً ما تَستْخدم الثقافةَ مستخلِصةً منها ما يتوافق مع أهدافها: فإنْ كانت هذه الأهدافُ عادلة ونزيهة استندتْ إلى هذه القيم في الثقافة، وإنْ كانت الأهدافُ على العكس من ذلك جرّدتْ من غمدها كلَّ أسلحة التفوُّق العنصريّ والاستعلاء القوميّ تبريراً للعدوان والاستغلال.

بل إنّ المجتمع الإسرائيليّ نفسه يشهد منذ سنوات صحوةً بطيئةً معادية للصهيونيّة ولآليتها الحربيّة والدعائيّة معاً، سواء في أوساط بعض المؤرخين الجدد أياً كانت منطلقاتُهم، أو في الحركات السِّلامية الجذريّة الصغيرة، أو في كتابات بعض الأدباء والنقاد. وتعبِّر فدوى طوقان عن ذلك قائلةً في الجزء الثاني من مذكراتها **الرحلة الأصعب**:

«كتبت السيدة تسبورة شاروني مقالاً عادلاً وعقلانيّاً يفيض بروح إنسانيّة عالية تحت عنوان 'كتب الأطفال والتربية بروح الشوفينيّة والكراهيّة': «من المؤسف أن تَظْهر في السنوات الأخيرة كتبُ أطفالٍ جديدةٌ كلُّ غايتها التربيةُ بروح التعالي القوميّ وكراهية الشعوب المجاورة». ثم تَسْرد في مقالها أسماءَ كتبٍ بعينها مع أسماء مؤلِّفيها، وتقف عند قول أحدهم: 'العرب مخادعون، إنّهم عدوٌّ قاس، وأنا نفسي أَنْظر إلى العرب نظرةَ كراهية، وددتُ لو أعمل شيئاً، [كأنْ] أَقْبض على هذا العربيّ وأخنقه'...»

خلاصة: رغم أنف اليونسكو

خلاصة الأمر أنّ العقل الإنسانيّ هو سيرورةٌ وتشكُّلٌ دائمانِ. والقول بأنّ الحرب تنشأ فيه، وأنّ علينا لذلك أن نَطْرح شعارَ «ثقافة السلام» لنطهِّر ذلك العقلَ من نزعات العنف والعدوان، هو قولٌ ساذجٌ لاتاريخيٌّ يَخْتزل الواقعَ الإنسانيَّ المتعدد والمركَّب في مقولات، متصوِّراً أنّ مجرد تغيير المقولات وإدخالِ غيرِها إلى العقل سوف يغيِّر الواقع فيَنْشأ السلامُ المأمولُ من دون أن نطيح بالأسباب الواقعيّة التي أنتجت الحربَ والعدوانَ والمقاومة. والواقع أن هذه الأسباب لو بقيت كما هي فسوف تظل تُنتج الحربَ والعدوانَ والمقاومة، رغم أنف اليونسكو والقساوسة الطيِّبين وكلِّ دعاة الخير في العالم.

طَرْحُ اليونسكو مغلوط لأنَّ العالم لا يتطوّر وفقاً لقوانين مطلقة للفكر، بل وفقاً للصراع بين الدول والطبقات والمصالح

لو بقي الاستيطانُ والقهرُ والعنفُ في أيّ مكان في المعمورة فسوف تبقى وتتطوّر حركاتُ التحرُّر الوطنيّ، وتَنْضج أشكالٌ جديدةٌ لثقافة المقاومة الطامحة إلى الانسجام البشريّ والكونيّ، أيْ إلى السلام الحقيقيّ الذي تجد فيه التناقضاتُ الكبرى الواقعيّة حلاً تنقله عبر الصراع إلى الدماغ ليكون سلاماً تنتهي فيه أشكالُ الاستيطان والاستعمار والعدوان والاستغلال كافةً □.

القاهرة